صبحي الجيار

ملحمة الصبر والألم

obeikan.com

كانت فرحة الأسرة كبيرة بقدوم هذا المولود الجديد (صبحي) للتاجر الكبير عزيز أمين الجيار الذى ورث العمل بتجارة الجير أبا عن جد..

اكتشفت القابلة أن الطفل يبكي بحرقة شديدة لأن الحبل السري يلتف حول رقبته ويكاد يخنقه.. فأسرعت بقطعه.. ولكنها هزت رأسها فى حزن فلما سُئلت: لماذا أنت حزينة؟ أجابت: لأن الطفل الجميل سيلاقي فى حياته صعوبات وقيوداً كثيرة.

وتمضي الأيام.. وتنسي الأسرة هذه النبوءة المتشائمة.. ويشب صبحي.. ويعيش طفولة سعيدة.. وكان متفوقاً فى دراسته.. وكثيراً ما كانت أمه تجلس إليه وتحكى له الحكايات الخيالية والأساطير.. مما جعله يعشق قراءة القصص والروايات.

وكان الفتي شعلة من النشاط والحيوية.. يلعب كل الألعاب.. يهوى الرسم والموسيقى ومحاكاة الأصوات.. وإصلاح الأشياء.. أما هواية القراءة فقد بدأت لديه فى سن مبكرة، حيث أقبل يشترى من مصروفه اليومي المجلات.. وروايات الجيب وقصص للجميع.. وينشئ مكتبة صغيرة له فى البيت.

ويلتحق صبحي بمدرسة الإبراهيمية الثانوية بجاردن سيتي.. وكان من المتفوقين فى الدراسة.. حتى جاء اليوم الثالث والعشرون من ديسمبر عام ١٩٤١م (وهو فى الرابعة

عشرة من عمره) وكان قد انتهي من لعب الكرة مع أصدقائه.. وفى طريق عودته إلى البيت أحس بألم شديد فى كعب قدم اليمني.

لم يهتم بهذا الألم فى البداية.. لكنه فوجئ بأن الألم يمتد بسرعة إلى الركبة ثم يمتد عبر فخذه.. ثم يمتد إلى ساقه اليسرى كذلك.

أسرع أبوه إلى الأطباء.. فشخصوا المرض بأنه روماتيزم حاد يصيب المفاصل.. وبدأ يتناول أدوية كثيرة.. لكنها لم تكن ذات جدوى.

وينقطع صبحي عن الدراسة سنتين طويلتين.. قرر بعدهما أن يواصل دراسته راقداً فوق سريره.. ومن ثم ساعده أخوه فى إحضار الكتب حتى استطاع أن يتفوق بنظام المنازل.

ويستمر الألم ينهش جسد صبحي.

لم يعد جسده يتحرك ما عدا الكتفين.. ونصف الذراعين وأصابع اليد.

لكن صبحي الجيار بما يملكه من إرادة وأمل وصبر.. لم يستسلم لهذا اليأس.. بدأ من نقطة الصفر – على حد تعبيره – فتناسي هذه القيود جميعاً.. واستطاع بموهبته وقلمه أن يثقب جدار سجنه هذا إلى عالم أرحب.

كان يؤمن بالحكمة التى تقول: الحياة كأس مملوءة إلى نصفها.. يرى المتفائل نصفها المملوء.. أما المتشائم فلا يرى إلا نصها الفارغ. ومن ثم كان صبحي متفائلاً برغم هذه القيود اللعينة..

وبدلاً من الصمت والجمود أخذ ينبش فى زوايا نفسه باحثاً عن مواهبه الدفينة.. فأمسك الفرشاة ليرسم.. والقلم ليكتب.

ويحكى صبحي فى كتابه "ربع قرن من القيود" أن المرض أتاح له وقتاً طويلاً للتفكير والتأمل.. وفرصة كبيرة للاطلاع الغزير والإنتاج الأدبي والفني فصار بذلك عضواً فاعلاً فى المجتمع يعيش مع الناس.. ويبتسم وهو يكافح ثم يتصل بالصحف والمجلات ويرسل إليها رسومه وقصصه.. ويراها منشورة باسمه.. فيدخل ذلك السرور والنور إلى وجدانه.. ويبدأ بكتابة القصص البوليسية.. وينشر الأولي (من أول نظرة) فى عام ١٩٤٦م فى مجلة المصباح.

ثم تنوعت منشوراته بين الرسم والقصة المؤلفة والقصة المترجمة.. وتمضي الأيام فتغلق بعض المجلات أبوابها لصعوبات مادية.. ويفكر صبحي الجيار فى إصدار مجلة أدبية يبذل فيها كل طاقته وخبرته.. وفى يوم ٣ يناير ١٩٥٤م يصدر العدد الأول من مجلة (قصتي) فى شكل كتاب أدبي يقع فى مائة صفحة وبغلاف أنيق مطبوع بثلاثة ألوان. لكن نتيجة توزيع هذا العدد كانت مخيبة

لآمال صبحي.. فقرر أن يضغط المصروفات ويقوم بنفسه بكل شئ.. الرسم والترجمة والتصحيح والحسابات والاتصال بشركات التوزيع..

وتمر الشهور.. ويرتفع توزيع المجلة وتحتضن أسماء كثيرة من كتاب القصة فى مصر.. والذين صاروا فيما بعد من رواد هذا الفن..

وبعد سبعة وعشرين عدداً لم يستطع صبحي أن يواصل أمام الخسائر المادية الكبيرة.. فتوقفت المجلة عن الصدور.

ولم يندم صبحي على ذلك.. بل انطلق يفرغ طاقته الفنية من سريره الدائم إلى كل مكان.. ينشر ويترجم.. ويرسم بلا توقف.. ويفوز صبحي بجائزتين لنادي القصة فى عام ١٩٥٧م.. ويعلن يوسف السباعي سكرتير النادي تخلف صبحي عن الحضور.. فصار مرضه وساماً يرفع من قدره أمام أصدقائه ومحبيه.

وتصدر الصحف تشيد بموهبة صبحي الجيار الذى فاز بجائزتين.. ثم يدعو عبد الرحمن الشرقاوي إلى علاجه مع صديقه حسين القباني فى الخارج على حساب الدولة.

ويسافر صبحي إلى لندن لأول مرة فى حياته معلقاً بسقف الطائرة.. لكنه يعود بلا علاج.. فيعيش هكذا صابراً فى قيوده.. حتى آخر رمق فى حياته..

وبدأ يمارس حياته من جديد ويجتمع حوله أصدقائه ومحبوه.. وتقوم على خدمته سكرتيرته الخاصة السيد نعمات عيسي التى أفنت عمرها فى خدمته اعترافاً منها بقدره وموهبته.

إنها مسيرة إنسان عظيم عاش بالأمل والصبر والتحدي حتى رحل عن عالمنا فى عام ١٩٨٧م مكملاً ستين عاماً من العطاء وحب الحياة.

obeikandl.com